INDONESIAN JOURNAL
of Islamic Literature and Muslim Society
Vol. 8, No. 2, June-December, 2023, ISSN: 2528-1194 (p); 2528-1224

Al-Awbi'at fi al-Turats al-Islami: at-Tashkhis wa al-Waqaya wa al-'Ilaj

Pr. Hadj Benaired
University of Mouloud Maameri, Algeria
Email: hbennaired@gmail.com

Absract

The Islamic world, like other nations, has faced numerous pandemics throughout history, profoundly shaping its societal landscape. Muslims historically addressed such challenges in accordance with the teachings of Prophet Muhammad (peace be upon him), employing both spiritual practices, such as supplication and purification rituals, as well as practical measures. Among the most devastating pandemics was the Black Plague in the mid-8th century, which ravaged the Islamic world and beyond, spanning Asia and Europe. This pandemic reshaped demographics and left a lasting impact on states and societies. Islamic scholars and physicians played pivotal roles during this crisis, documenting its effects, proposing solutions, and contributing to medical advancements. This research aims to explore the contributions of Muslim scholars and doctors in combating the Black Plague, documenting their writings, proposals, and medical interventions. By examining their efforts, we gain insights into historical approaches to pandemics and strategies for prevention and treatment.

Keywords: Plagues, Islamic Scholars, Heritage, Prevention, Cure.

مقدّمة

تكرّرت النّكبات على العالم الإسلامي عبر تاريخه الطّويل، وقد شكّل بعضها تهديدا لوجوده؛ من حروب ومجاعات وأوبئة جارفة، ابتداء بطاعون عمواس سنة 18 للهجرة، والّذي هلك فيه كثير من الصّحابة رضي الله عنهم؛ منهم فضلاء وحفظة للقرآن الكريم، وأدّى ذلك إلى دقّ ناقوس الخطر لحماية النّصّ القرآني الكريم من جهة، وكذا التّفكير في سبل الوقاية

DOI: https://doi.org/10.22515/islimus.v8i2.8658

والعلاج من تلك الطّواعين من جهة أخرى، وصولا إلى نكبة بغداد سنة 656هـ منتصف القرن السّابع الهجري ودمارها على يد المغول، ولكن يبقى أخطرها في رأينا هو الطّاعون الأسود سنة 749هـ/1348م منتصف القرن الثّامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي؛ أدّت هتان النّكبتان إلى إضعاف الأمّة الإسلاميّة، وساهم كلاهما في إدخال الأمّة في ما يُعرف بعصر الضّعف والانحطاط؛ فإن كانت نكبة بغداد أضعفت السّلطة السّياسيّة للسّلاطين والخلفاء، ساهمت نكبة الطّاعون الأسود في القضاء على ما تبقّى فيها من حركة علميّة غزيرة كانت خلال القرن السّابع الهجري، وأضعف الوباء اهتمام النّاس بالعلم والعلماء فضلا عن هلاك خيرة العلماء في ذلك الطّاعون، وحفلت كتب التّراجم في التّراث الإسلاميّ بذكر الأعيان والعلماء الّذين تُوفُّوا بسبب الطّاعون الأسود سنة 749هـ/1348م، وأطلقوا على تلك السّنة سنة الفناء، ممّا جعلنا نتساءل حول هذا الطّاعون الّذي هلك فيه كثير من العلماء والأعيان فضلا عن عامّة النّاس في المشرق والمغرب، وحول مدى تأثيره في سقوط الأمّة ومقاومتها لأسباب السّقوط طيلة قرون، وقد شجّعني للمضيّ في هذا البحث ما أدركناه من أحوال جائحة الكورونا (كوفيد 19) في العالم سنة 2020م.

وقد وقفنا على شهادات عاينت آثار الدّمار الّذي خلّفته هذه الجائحة، منها شهادة ابن خلدون (ت808هـ)، والّذي يعتبر هذا الطّاعون أحد أهمّ حدثين عظيمين في تاريخ الغرب الإسلاميّ، وتغيير ملامحه؛ وهما الغزوة الهلاليّة في القرن الرّابع الهجري، والطّاعون الجارف في القرن الثّامن الهجري، وأجمعت كتب التّراث على أنّ مسار هذا الوباء وطريق انتشاره أنّه ابتدأ من الصّين ثمّ انتشر شرقا إلى أنّ زحف على أوربا وشمال إفريقيا، وهو ما يشبه في مسار انتشاره وباء كورونا كوفيد 19 في سنوات 2019م–2021م، وقد تحدّثت عن الطّاعون الأسود أيضا المصادر الغربيّة؛ وذكرت أنّه تسبّب في هلاك نصف أوربا وخاصّة فرنسا وإيطاليا وبريطانيا؛ وأطلقت عليه اسم الطّاعون الأسود la peste noire، وأدّى إلى تغيير الخريطة الدّيمغرافيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة في العالم خلال العصر الوسيط.

وهذا أيضا دافع آخر حرّك عزائمنا مجدّدا إلى البحث عن تعامل العلماء المسلمين معه؛ من حيث توصيفه وتشخيصه، والبحث عن أسبابه، وطرق الوقاية والعلاج منه، وركّزنا على ذكر المؤلّفات الّتي تركها علماء القرن الثّامن الهجريّ حول هذه الجائحة، فقد وجدنا كثيرا من الإشارات إلى مؤلّفات حوله وردت في ذلك عبر كتب الفهارس والتّراجم، كما وقفنا على

رسائل وكتب خاصّة به، وفي هذا الصّدد وقفنا على مقامة ابن الوردي (ت749هـ) الّذي توفّي فيه، وقد ذكرها مختصرة في تاريخه، وعنوانها: (النّبا عن الوبا)، نقلها ابن الوردي في تاريخه[1]، ونقلها ابن شاهنشاه في تاريخه[2]، ونقلها أيضا ابن حجر بإسناده في كتاب (الماعون في فضل الطّاعون)[3]، فيما ترك ابن الوردي لنا فيه بعض الأشعار والآثار، بينما ألّف ابن حجر العسقلاني بعد ذلك كتاب (بذل الماعون في فضل الطّاعون)، وهو كتاب طبّ ودين، ولاشكّ أنّه قد تأثّر بهذا الحدث الجلل الّذي سبقه، ولو أنّ زمانه شهد بعض الطّواعين، ولكنّها كانت أقلّ تأثيرا من الطّاعون الأسود أو الجارف.

وفي الغرب الإسلامي وقفنا على عدّة رسائل ألّفت بخصوص الطّاعون الأسود؛ نذكر منها: رسالة عنوانها: (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد) لأبي جعفر أحمد بن عليّ بن خاتمة الأنصاريّ (ت770هـ)، ورسالة أخرى عنوانها: (مقنعة السّائل في المرض الوافد) لأبي عبد الله محمّد بن عبد الله المعروف بلسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ). وفي الغرب أنجزت الكثير من الدّراسات العلميّة حول هذا الوباء منها كتاب الباحث الفرنسي جون نويل بربان –في كتابه (الطاعون La peste)، وفي هذا الصّدد نجد كتاب (Epidémies et crises de mortalitédu passé)، وهي مجموعة من الأبحاث والدّراسات قام بها مجموعة من الباحثين والأساتذة بفرنسا بجامعة بوردو، بتنسيق دومیناك كاستاكس Dominique Castex وايزابيل كارترون Isabelle Cartron، في إطار فعاليات ملتقى علوم الإنسان سنة 2005م، ونشر الكتاب سنة 2007م، بينما يذكر خبير روسي في الفيروسات أنّ الفيروس التّاجي

[1] – ابن الوردي، زين الدّين عمر بن المظفّر، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدريّة، النّجف، العراق، 1969م، ج2ص338–340.

[2] – ابن شاهنشاه، أبو الفدا إسماعيل بن عليّ، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينيّة المصريّة، دت، ج4ص151–153.

[3] – ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدّين أحمد بن علي، بذل الماعون في فضل الطّاعون، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرّياض، ط1، 1411هـ/1991هـ، ص371–379.

كورونا كان موجودا في القرن الثّاني عشر الميلادي[4].

تعريف الطّواعين والأوبئة

ترك لنا التّراث العربيّ أعمالا كثيرة في وصف الطّواعين والأوبئة والجوائح، ومن أجلّها ما تركه علماء القرن الثّامن الهجريّ إثر الطّاعون الأسود، ففي الغرب الإسلامي وقفنا على عدّة رسائل أُلّفت بخصوص الطّاعون الأسود؛ منها: في الأندلس اثنان؛ هما: أبو جعفر أحمد بن عليّ بن خاتمة الأنصاريّ ألّف رسالة عنوانها: (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)، والثّاني أبو عبد الله محمّد بن عبد الله المعروف بلسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ) صنّف رسالة عنوانها: (مقنعة السّائل في المرض الوافد)، وبالمشرق وجدنا مقامة ابن الوردي (ت749هـ)، و(كتاب فيه ذكر الوباء والطّاعون) للّغويّ المحدّث أبي المظفّر يوسف بن محمّد السُّرَّمَري (ت776هـ).

نقل اللّورقي (ت575هـ) في تعريفه للطّاعون عن الخليل (ت170هـ): "هو الوباء"، وعن ابن الأثير (ت606هـ) وابن منظور (ت711هـ): "الطّاعون المرض العامّ الّذي يفسد له الهواء، وتفسد به الأمزجة والأبدان"[5]، وعن أبي بكر ابن العربي (ت543هـ): "الطّاعون الوجع الغالب الذي يطفئ الرّوح كالذّبحة سمي بذلك لعموم مصابه وسرعة قتله"، وعن الدّاودي (ت402) قال: "الطاعون حبة تخرج في الأرقاع وفي كلّ طي من الجسد، والصّحيح أنّه الوباء"، وعن القاضي عياض (ت544هـ): "أصل الطاعون القروح الخارجية من الجسد، والوباء عموم الأمراض؛ فسميت طاعونًا لشبهها بها في الهلاك، وإلّا فكلّ طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا"، وعن ابن سينا (ت427هـ): "الطّاعون مادّة سمّية تُحدث ورمًا قتّالًا يحدث في المواضع الرّخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط أو خلف الأذن أو عند الأرنبة"، قال: "وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد ويستحيل إلى جوهر سمّيّ يفسد العضو ويغير ما يليه ويؤدّي إلى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان"

---

[4] – انظر: قناة RT، عالم روسي يتحدّث عن الصّلة بين الاستخبارات وكورونا، فيديو على قناة يوتيوب: رابط https://www.youtube.com/watch?v=SkMni1v1hB4، يوم 2020/12/23، 22:49، الدّقيقة: 19:44.

[5] – ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مكرم الإفريقيّ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت، ج13ص267، "طعن".

...إلى أن قال: "والطّواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئة، ومن ثم أطلق على الطّاعون وباء وبالعكس، وأما الوباء: فهو فساد جوهر الهواء الذي هو مادّة الرّوح ومدده"[6].

ويقول لسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ): "هو مرض حادّ، حارّ السّبب، سمّيّ المادّة، يتّصل بالرّوح بدءا بواسطة الهواء، ويسري في العروق، فيفسد الدّم، ويحيل الرّطوبات إلى السّمّية، وتتبعه الحمّى ونفث الدّم، أو يظهر عنه خُراج من جنس الطّواعين"[7].

ويقول السُّرَّمَرِيّ (ت776هـ) في تعريفه للوباء: "وقال الأطبّاء: هو بثور أو ورم مع تلهّب شديد، وقد يكون أخضر، وقد يكون أحمر، وقد يكون أسود، وكلّها رديئة خطيرة، خاصّة ما كان منها أخضر، ويصير ما حوله كمدا، أو أسود ويتبع ذلك غشي وخفقان أو قيء، وهو من الأعراض الشّديدة الخطرة، وخاصّة إذا أفرط، وإن كان الوباء هوائيّا كان أردأ وأخطر، وقد يحصل ضمن ذلك حمّى وبائيّة، وقد تحصل الحُمّى ضمنه، وقد يقع أحدهما دون الآخر، ويكون حدوثه في اللّحم الرّخو الموجود في المغابن، أو في الإبطين، أو في الحالبين، وهو خلط دمويّ غليظ خبيث، أو صفراويّ"[8]، ومثله للإمام النّووي (ت676هـ) في شرحه على (صحيح مسلم)[9]، وقد أجمعت آراء العلماء المسلمين أنّ أسباب الأوبئة هي إمّا فساد الهواء، أو فساد الغذاء، أو هما معا؛ يصحبه فساد أمزجة النّاس وخروج الجسم عن حالة الاعتدال إلى الاعتلال.

من كتب التّراث حول الطّواعين

---

[6] – الرّوقي، عبد الله بن مانع، نفح العبير، الدّار العالميّة للنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، ط1، 2011م، ص173، 174. وتعريف ابن سينا لم أجده في كتاب (القانون) في الطّبّ، ونقله عنه مجموعة من الأكابر منهم ابن حجر العسقلاني (الفتح، 180/10).

[7] – لسان الدّين ابن الخطيب، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله السّلماني الغرناطي، مقالة مقنعة السّائل عن المرض الهائل، تحقيق وتقديم: حياة قارة، منشورات دار الأمان ومطبعة الكرامة، الرّباط، ط1، 1436هـ/2015م، ص65.

[8] – السّرّمريّ، جمال الدّين يوسف بن محمّد بن مسعود، كتاب فيه ذكر الوباء والطّاعون، تحقيق: شوكت بن رفقي بن شوكت، الدّار الأثريّة، عمان، ودار المحبّة، دمشق، ط1، 2004م، ص25، 26.

[9] – النّووي، يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط2، 1392هـ، ج14ص204.

قامت عدّ دراسات في الفترة الأخيرة حول النّكبات والأوبئة في تاريخ العالم القديم والحديث، وفق مناهج جديدة ووفق مقاربات أنتروبولوجيّة وأركيولوجيّة وتستعين بالحفريّات والتّخصّصات البيولوجيّة وغيرها، وفي هذا الصّدد نجد مثلا كتاب (Epidémies et crises de mortalité du passé)، وهي مجموعة من الأبحاث والدّراسات قام بها مجموعة من الباحثين والأساتذة بفرنسا بجامعة بوردو، بتنسيق دومیناك كاستاكس Dominique Castex وإيزابيل كارترون Isabelle Cartron، في إطار فعاليات ملتقى علوم الإنسان سنة 2005م، ونشر الكتاب سنة 2007م. كما أقيمت في الفترة الأخيرة بين سنتي 2020م و2021م ملتقيات كثيرة في الموضوع، وتناولته من مختلف وجهات النّظر والتّخصّصات العلميّة والتّقنيّة والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. وفي التّراث العربي وقفنا على الكثير من الرّسائل والكتب؛ منها:

a. كتاب الطّاعون لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم المالقي (ت763هـ).

b. كتاب (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد) لأبي جعفر أحمد ابن خاتمة الأنصاريّ (ت770هـ)، وهو إجابة عمن سأله عن الطّاعون الحادث في المرية بالأندلس سنة 749هـ في أسبابه وطرق الوقاية منه وعلاجه وإيراد الآثار الواردة فيه[10].

c. كتاب (مقنعة السّائل في المرض الوافد) لأبي عبد الله محمّد بن عبد الله السّلماني الغرناطي؛ المعروف بذي الوزارتين لسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ)، وقد نشرها المستعرب الألماني ماركوس جوزيف مولر مع ترجمة إلى الألمانيّة في مجلّة أكاديميّة العلوم البافاريّة (مجلد 6 سنة 1863م، 1–35)، وترجمها إلى الإنجليزيّة المستعرب ميرهوف، وشرحها ابنه أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن عبد الله السلماني الغرناطي (كان حيا سنة 769هـ)، وسمّاها ابن الخطيب رسالة في الطّاعون؛ ذكر فيها أعراض هذا الطّاعون وطرق الوقاية والعلاج منه.

d. كتاب (تحقيق النّبا في أمر الوبا) لأبي عبد الله محمّد بن علي اللّخمي الشّقوري (كان حيّا سنة 776هـ). وله كتب أخرى في صناعة الطّبّ: (تحفة المتوسّل وراحة المتأمّل)، لها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط برقم: 2337، وكتابا في الأدوية سمّاه: (الجهاد الأكبر)،

[10] – انظر: مقالة مقنعة السّائل عن المرض الهائل، ص19. له عدّة نسخ مخطوطة: نسخة بالخزانة العامة بالرباط برقم: ك255، ونسخة بالإسكوريال بإسبانيا برقم: 1785، ونسخة بمعهد إحياء المخطوطات العربيّة بالقاهرة برقم: 44 طب، ونسخة بمكتبة بايزيد بإسطنبول.

ومجربات الشّقوري لها نسخة بالخزانة العامة بالرّباط برقم: د1035، ورقم: د1680، والخزانة الحسنية برقم: 6323.

e. وله كتاب (تقييد النّصيحة) في هذا الوباء من أجل الوقاية منه وعلاج المصابين، وذكر أسبابه وأعراضه؛ يقول فيها: "سببه فساد مبثوث في الهواء المتنفّس فيه، فلذلك أمر الأطبّاء بإصلاح الهواء، وهو من آكد الأشياء، ولا يعرف الهواء والحاجة إليه الكثير من النّاس، وإنّما يعرفه من يعتريه أمر يضيّق نفسه من تعب شديد أو مرض في آلات التّنفّس، ثمّ إنّ هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثّر فيها تأثيرا عظيما حسبما شوهد منه"[11]، وخصّه بإصلاح الهواء وإصلاح الأبدان بالغذاء والدّواء، ولها نسخة مخطوطة بمكتبة المنوني: [الخفيف]

f. ولأبي علي عمر بن علي بن الحاج السّعيدي المالقي (كان حيا سنة 844هـ) مقامة أدبيّة عجيبة في ذكر الطّاعون والتّطبّب منه ذكرها المقري (أزهار الرياض، 1/125–132).

g. مصنّف في الطّاعون لتاج الدّين السّبكي (ت771هـ)، وردّ عليها صلاح الدّين ابن أيبك الصّفدي (ت749هـ).

h. كتاب الطّب المسنون في دفع الطّاعون لشهاب الدّين أحمد ابن أبي حجلة التلمساني (ت776هـ).

i. كتاب (ما رواه الواعون في أخبار الطّاعون) لشمس الدّين محمّد بن محمّد المنبجي (ت785هـ)، وهو مصنّف في طاعون سنة 764هـ. يشير الشقوري في أمر هذا الوباء إلى أنّه شاع التّأليف فيه من الأطبّاء؛ بقوله: "ولا يبعد أن يكون إخواننا الأطبّاء قد صنعوا مثل صنعنا وألّفوا كما ألّفنا"[12].

j. دفع النقمة في الصلاة على نبي الرحمة، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني (ت776هـ)، مخطوط بالأسكوريال. وله كتاب الطب المسنون في دفع الطاعون، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن أبي حجلة التلمساني (ت776هـ)، مخطوط بالأوقاف العامة بطرابلس، ونقل عنه السيوطي.

---

[11] – المرجع السّابق، ص22.

[12] – الشّقوري، النّصيحة في الوباء، مخطوط، 5و.

k. ومن هذه الكتب الّتي ذكر ت هذا الطّاعون واختّصت به (النّبا عن الوبا) لابن الوردي (ت749هـ)، ولخّصها في كتابه في التّاريخ،

l. تحقيق النّبا من أمر الوبا للطّبيب عبد الله بن محمّد اللّخمي الشّقوري طبيب الأندلس والمغرب في زمانه له عدّة رسائل في الطّبّ منها هذه الّتي تكلّم فيها عن الوباء الكبير الّذي عصف بالأندلس ودخل من المرية سنة 749هـ/1348م، وأوضح أنّ تلوّث الهواء بوباء الطّاعون هو الّذي يحمل هذا المرض من مكان إلى مكان، وأنّ تنقية البيوت ببخور الصّندل أو البلسم وكشفه لأشعّة الشّمس وحركة الهواء يفيد للوقاية من هذا الوباء[13].

وقد نُشرت رسالة (مقنعة السّائل) للسان الدّين ابن الخطيب بدار الأمان بالرّباط سنة 2015م، بتحقيق حياة قارة، وكلتا الرّسالتين قدّمتا وصفا رائعا لتحرّك وباء الطّاعون ولنوعيتي الرّئوي والدّملي، وعلامان وأعراض كلّ منهما وسبل الوقاية منهما[14]، وقد نشرت في ثلاث رسائل (مقنعة السّائل عن المرض الهائل لابن الخطيب، وتحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد لا بن خاتمة، والنّصيحة للشقوري) تحقيق ودراسة: محمّد حسن، ونشرت سنة 2013م.

(كتاب فيه ذكر الوباء والطّاعون) لأبي المظفّر يوسف بن محمّد السّرّمريّ (ت776هـ) من علماء دمشق، أصله من سامرّاء، وهو يخالف في طرحه معظم ما ذكره العلماء والأطبّاء حول الأوبئة والطّواعين، وانفرد بأنّها غير معدية، وأنّ سببها الرّئيسيّ هو الذّنوب والمعاصي، وقد رأى أنها ليست عذرا لترك التّزاور والجماعات، وقد انتقد من يقول بخلاف ذلك ورماه بالجهل، وهو لا ينفي وجوب الاحتراز منه والوقاية.

كتاب (المقالة الحكمية في الأمراض الوبائيّة) لأبي الحسن عليّ بن عبد الله ابن هيدور التّادلي (ت816هـ)؛ وذكر أنّ سبب الأوبئة هو إمّا فساد الهواء أو فساد الأغذية أو هما معا وهو الطّامّة الكبرى كما ذكر؛ وعنده هناك طريقتان للعلاج؛ وهما: الدّعاء وطلب الشّفاء، والطّبّ والعلاج، وله عدّ نسخ مخطوطة: نسخة بالخزانة الحسنية برقم: 9605، ونسخة

[13] – طه عبد المقصود، الحضارة الإسلاميّة –دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة–، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2004م، ج2ص924.

[14] – المرجع السّابق، ج2ص925.

بدار الكتب المصريّة برقم: 183 طب، ونسخة بمؤسّسة الملك عبد العزيز بالمغرب برقم: 364، ونسخة في خزانة محمّد المنوني[15].

أسباب حدوث الطّواعين والأوبئة

تُجمِع مصادر التّراث العربيّ على أنّ حدوث الأوبئة سببها فساد الأمزجة النّاتجة بدورها عن فساد الهواء والغذاء، ومنهم علماء القرن الثّامن الهجري؛ حيث يقول السّرّمري: "..وأمّا الوباء فهو فساد مزاج الفعل، وخروجه عن طبعه الّذي خُلق له لِما يحدث فيه من الحوادث المستغربة في مثله، فإنّ الله تعالى جعل الرّبيع معتدلا، والصّيف حارّا يابسا، والخريف معتدلا اعتدالا ما، والشّتاء باردا رطبا، حكمة منه بَنَى عليها مصالح العالم، وانتظام أحواله وإتمامه وإكماله، فأيّ فصل من الفصول الأربعة تغيّر عن طبعه الموضوع له حصل في المخلوقات من التّأثير بنسبة ذلك، مثل أن يكون الشّتاء حارّا أو الصّيف باردا، أو أحد الفصلين الآخرين خارجا عن طبعه في الاعتدال، وكذلك إذا كان في الصّيف الغيوم الكثيرة الدّائمة والمطر وكثرة هبوب الجنوب، وتكدّر الجوّ وظهر في الهواء باللّيل شعاعات فحينئذ يتغيّر الفصل لذلك ويفسد، فتفسد أمزجة العالم ويفسد الثّمار وتصير مضرّة"[16].

بينما يُرجع العلماء أصل أسباب الأوبئة إلى فساد النّاس بكثرة المعاصي والجَوْر والظّلم، وهذه النّظرة الميتافيزيقيّة للعلماء المسلمين لا تتعارض مع كون فساد الهواء والغذاء هما أصل حدوث الأوبئة، ففساد الفضاء والمكان ينتج عن فساد طباع النّاس وأخلاقهم، وابتعادهم عن السّلوك القويم؛ وهو الاعتدال والاستقامة الّتي ينضبط بها مدار نواميس الكون، وقد قال تعالى: (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا) [الرّوم: 41]؛ فلا تعارض بين الآيات المتلوّة والآيات المجلوّة، وبين الدّين وعلوم الطّبّ والبيولوجيا.

وفي معرض حديث السّرمريّ عن سبب الوباء هو كثرة المعاصي مستدلّا في ذلك بأحاديث في الباب، ونفى وجود العدوى، وأنكر على فقيهين علم بفتواهما في ضرورة التّباعد

[15] – انظر: مقنعة السّائل، ص24–26.

[16] – كتاب فيه ذكر الوباء والطّاعون، مرجع سابق، ص25، 26.

والابتعاد عن المرضى أو ممّن هلكوا به، وسفّه رأيهما ورماهما بالجهل، وتأوّل الحديث في النّهي عن الخروج منه أو الدّخول فيه؛ بأنّ نهيه عن الخروج لأنّه لا عدوى، وعن الدّخول إليه لئلّا يتعجّل الإنسان من الهمّ والحزن وضيق الصّدر والقلق والانزعاج والجزع ما لا يجده في غيره من البلاد ..[17]، ويستشهد في موضع آخر بما هو مُشاهد من كثرة مخالطة الأطبّاء للموبوئين ومع ذلك لا يؤثّر فيهم ذلك، فلا عذر في ترك الجنائز وغيرها بسبب الوباء[18]، والطّلاق والقطيعة ونحوها[19]. وهو أيضا ما هو شائع عند الكثير من العامّة والخاصّة في التّعامل مع وباء الكورونا (كوفيد 19) من التّشكيك في جدوى البروتوكولات الصّحّيّة كالتّباعد الاجتماعيّ ووضع الكمامات.

ويقول ابن خلدون: "... وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العَفَن والرّطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الرّوح الحيوانيّ وملابسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه، فإنْ كان الفساد قويّا وقع المرض في الرّئة، وهذه الطّواعين وأعراضها مخصوصة بالرّئة، وإن كان الفساد دون القويّ والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميّات في الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرّطوبات الفاسدة في هذا كلّه كثرة العُمران ووفوره آخر الدّولة، لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلّة المغرم وهو ظاهر، ولهذا تبيّن في موضعه من الحكمة أنّ تخلّل الخلاء والقفر بين العمران ضروريّ ليكون تموّج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء الصّحيح، ولهذا أيضا فإنّ الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدّر ما يشاء"[20].

وبهذا فابن خلدون كعادته يحاول أن ينظّر للأحداث فيربط بين الأوبئة ونظرية العمران، فالوباء بحسبه لا يأتي إلّا حين تهرم الدّول وتشيخ وتؤول إلى الزوّال، في مرحلة الضّعف والدّعة، وباختلال العمران بكثرة المباني والمغارم وفساد الطّباع والبيئة بفساد الهواء

---

[17] – انظر: المرجع نفسه، ص49، 50.

[18] – انظر: المرجع نفسه، ص77.

[19] – انظر: المرجع نفسه، ص111 وما بعدها.

[20] – ابن خلدون، عبد الرّحمن، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1983م، ج1ص376، 377.

والغذاء؛ فيسرّع ذلك الوباء في تناقص العمران وزوال الدّول.

وقد أجمعت المصادر في التّراث العربيّ أيضا على انتقال المرض عن طريق العدوى، إمّا بواسطة انتقاله عبر الهواء، أو عبر الغذاء، أو هما معا، وما يترتّب عليه من الملامسة والمصافحة أيضا، وعلى أيّة حال؛ فقد كان المسلمون سابقين لغيرهم في تقرير أمر العدوى، فالطبيب الإيطالي جيرولامو فراكاستورو (ت1553م) الّذي يُعدّ مؤسّسا للمدرسة الغربية القائلة بحدوث العدوى بوصفه أوّل من قال بذلك أوروبيا، ألّف كتابه "De Contagione et Contagiosis Morbis" الصادر بمدينة البندقية عام 1546م، وذلك بعد ظهور رسالتي ابن خاتمة الأنصاري (ت770هـ) ولسان الدّين ابن الخطيب (ت776هـ) عن الطّاعون، وإثباتهما العدوى به بنحو مئتي سنة تقريبا، وبعد فتوى السّبكي بنحو قرن؛ حسب ما توصّل إليه أحمد العدوي[21].

وقد وجدنا بعض الآراء المخالفة بعدم وجود العدوى، ومنها أنّ السّرمريّ ينفي وجود العدوى، وهو ما دفعه أساسا إلى تأليف رسالته في الطّاعون، وأنّ الخوف من العدوى بحسبه أدّى إلى أضرار دينيّة واجتماعيّة بسبب الحجر الاضطراري؛ فتعطّلت الجمع والجماعات وشهود الجنائز وعيادة المرضى وصلة الأرحام، وهو بذلك يخالف في طرحه معظم ما ذكره العلماء والأطبّاء حول الأوبئة والطّواعين في زمانه، وانفرد بأنّها غير معدية، وأنّ سببها الرّئيسيّ هو الذّنوب والمعاصي، وقد رأى أنّها ليست عذرا لترك التّزاور والجماعات، وقد انتقد من يقول بخلاف ذلك ورماه بالجهل، وهو لا ينفي وجوب الاحتراز منه والوقاية. كما وجدنا في زمننا هذا من ينحو هذا المنحى في الدّول الكبرى، فقد رفضوا إجراءات الحجر الصّحّيّ لما له من آثار سلبيّة على الاقتصاد والتّجارة والسّياحة، أو من خفّفوا من تلك الإجراءات الصّارمة للأسباب نفسها، وهو ما أطال من عمر الجائحة، وتوالت الموجات الوبائيّة الأولى والثّانية والثّالثة سنة 2021م، كفرنسا وإيطاليا وبريطانيا.

الطّاعون الأسود ومسار انتشاره

[21] – انظر: الهاشمي، عبد القدّوس، الطّواعين والأوبئة في التّاريخ الإسلاميّ، موقع الجزيرة الإلكتروني، 2020/12/05م،.

وصف ابن الوردي (ت749هـ) خطّ مسار الطّاعون في مقامته؛ وهي: الصّين، الهند، السّند، بلاد أزبك، بلاد ما وراء النّهر (أفغانستان)، بلاد العجم، القرم، بلاد الرّوم، قبرص، جزر المتوسط، الإسكندريّة، القاهرة، الصّعيد، برقة، غزّة، عسقلان، عكا، القدس، صيدا، بيروت، دمشق، المزّة، بعلبك، حمص، حماة، أنطاكية[22]، وفي بلاد الشّام –بحسب ابن كثير– ابتدأ من بِلَادِ الْقِرْمِ، ثمّ بِلَادِ الْفِرَنْجِ، ثمّ قبرص، وغزة، وأخيرا دمشق[23].

وذكر ابن خاتمة أنّ أوّلَ ظهوره بالأندلس كان بألمرية أوّل شهر ربيع الأوّل من عام تسعة وأربعين وسبعمائة/ أوّل شهر يونيو سنة 1847م، واستمرّ تمام فصلي الرّبيع وجميع فصلي الصّيف والخريف وجزءا من الشّتاء؛ وهو وقت شهادة ابن خاتمة وتأليفه؛ وقال بأنّه ظهرت علامات بداية انجلاء الوباء في هذه المدّة.

ويذكر ابن بطوطة شهادته حوله ويسمّيه بالطّاعون الأعظم عندما كان بدمشق أواخر شهر ربيع الثّاني سنة تسع وأربعين وسبعمائة؛ وهو نفس زمان بداية طاعون ألمرية، ويبدو من خلال ما ذكره ابن بطّوطة أنّ الطّاعون كان في زمان ذروته بينما كان في ألمرية في بداية انحصاره؛ حين يصف فزع النّاس وشروعهم في صيام ثلاثة أيّام مع الدّعاء والصّلاة؛ إضافة إلى إجراءات وقائيّة تتمثّل في غلق المطاعم بالأسواق (الحجر الصّحّيّ)، وقد وصل حينها عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد، بينما وصل عددهم في القاهرة ومصر بحسبه إلى أربعة وعشرين ألفا في اليوم الواحد[24]، وقد ذكر ابن حجلة التّلمساني أنّهم أحصوا بالقاهرة بين شهري شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف وهناك من خرج عن هذا الإحصاء[25]، وقد حصد الطّاعون العامّ الّذي وقع سنة 749هـ أكثر المزارعين قبل أن يتسنّى لهم حصد مزروعاتهم، فلما جاء وقت الحصاد خرج العسكر بغلمانهم إليه؛ ويشير الباحث الفرنسي جون

---

[22] – عبد الرّحيم، رائد، رسالة النّبا عن الوبا لزين الدّين بن الوردي (ت749هـ) –دراسة نقديّة، مجلّة جامعة النّجاح للأبحاث، المجلد 24 (5)، 2010م، ص1501، 1502.

[23] – ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، 1986م، ج14ص268.

[24] – ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق: محمّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1987م، 325/1، 326.

[25] – ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص380.

نويل بربان –في كتابه (الطّاعون La peste) إلى هلاك 40 قرية مصرية من مجموع 2200 قرية، وفي طاعون 795هـ بالشّام خلت مدينة حلب وبلادها، وفي طاعون 826هـ خربت في بلاد الشّام قرى كثيرة[26].

وبحسب شهادة ابن كثير فإنّ الطّاعون ابتدأ في دمشق شهر صفر، وبدأ في التّزايد والانتشار، ويبدو أنّه بلغ الذّروة شهر جمادى، فقد كان يُصلّى على بضعة عشر رجلا في صلاة واحدة، بينما في شهر جمادى الآخرة تضاعف إلى المئات، يقول ابن كثير: "وفي منتصف شهر جمادى الآخرة قوي الموت وتزايد وبالله المستعان، ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته، وبالله المستعان، وكان يُصلّى في أكثر الأيّام في الجامع على أزيد من مائة ميت فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وبعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع، وأمّا حول البلد وأرجائها فلا يُعلم عدد من يموت بها إلّا الله عز وجل رحمهم الله آمين ... وفي يوم الجمعة ثامن شهر رجب صلّي بعد الجمعة بالجامع الأموي على غائب: على القاضي علاء الدّين ابن قاضي شهبة، ثمّ صلّي على إحدى وأربعين نفسا جملة واحدة، فلم يتّسع داخل الجامع لصفّهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السّرّ، وخرج الخطيب والنّقيب فصلّى عليهم كلّهم هناك، وكان وقتا مشهودا، وعبرة عظيمة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ..."[27]. وفي أوائل شهر ربيع الأوّل وقع الوباء بغزّة، وبلغ عدد الموتى ألفا في اليوم الواحد، وبحمص ثلاثمائة إنسان في اليوم الواحد[28].

ويصف ابن خاتمة انتشار الوباء في ألمرية بدقّة، فقد بدأ انتشاره بها حينها بالتّدريج من أوّل ربيع الأوّل 749هـ/ يونيو 1349م إلى آخر جمادى الثّانية/ سبتمبر، ثمّ دخل بعد ذلك في مرحلة الذّروة وتسارع انتشاره بألمرية، وإلى زمن كتابة ابن خاتمة لكتابه كان قد دخل الوباء في مرحلة الانحصار، وذكر طريقة انتشاره في مدينة ألمرية؛ وأنّه انتشر أوّلا بمحلّة يسكنها الفقراء والمساكين والضّعفاء، ثمّ انتقلت العدوى إلى من يليهم من الأحياء في مسار دائري بأطراف البلد (أو ما يعرف بالضّواحي)، ثمّ انتشر وسط المدينة، فكان يأخذ كلّ يوم سبعين نسمة من سكّان ألمرية وحدها، وهو رقم قليل بالقياس إلى باقي مدن أوروبا وشمال

[26] – عبد القدوس الهاشمي، الطّواعين والأوبئة في التّاريخ الإسلاميّ، موقع الجزيرة الإخباريّ،

[27] – البداية والنّهاية، مرجع سابق، ج14ص262.

[28] – ابن بطوطة، الرحلة، مرجع سابق، 179/4.

إفريقيا، فقد هلك بتونس ألف ومائتا نسمة في يوم واحد، وفي تلمسان أكثر من سبعمائة، وببلنسية نحو ألف وخمسمائة نسمة في يوم واحد، وبميورقة ألف ومائتان وخمسون نسمة في يوم 25 من شهر ماي سنة 1348م[29]، وبمالقة ذُكر بأنّهم كانوا كلّ يوم يُعدّون مائة قبر بأكفانها، وقاموا بجمع الصّدقات والتّبرّعات لذلك الغرض سنة 750هـ بعد أنّ هلك الكثير من أهل مالقة بأمر القاضي محمّد بن أحمد الطّنجالي المالقي (ت753هـ)[30]، وأمّا عن مدن المشرق ومدن أوربا فيبدو أنّها قد كانت أكثر تضرّرا. وبهذا فمرحلة التّغلّب على آثار الوباء بعد انحصاره سنة 750هـ كانت مرهقة للمجتمع وللدّولة في الأندلس كما توضّح هذه الشّهادة.

وقد ذكر ابن خاتمة اختلاف المتابعين لأمر هذا الطّاعون في مكان انطلاقه، وذكر عن بعض التّجّار النّصارى الوافدين على ألمرية أنّه ابتدأ من الصّين، ويعضّده ابن الوردي في المقامة؛ قال: ".. طاعون روّع وأمات، وابتدأ خبره من الظّلمات، يا له من زائر، من سنة خمس عشرة دائر، ما صين عنه الصّين، ولا منع منه حصن حصن، ..."[31]، ثمّ زحف غربا حتّى وصل إيران ثمّ تركيا، ومنها إلى أوربا وبلاد الشّام وشمال إفريقيا.

وهناك رأي آخر –بحسب ابن خاتمة– وهو أنّه ابتدأ من بلاد الحبشة (إثيوبيا)، ثمّ اتّصل بمصر وبلاد الشّام والمغرب ثمّ أوربا، وعلى كلا القولين فإنّ ريف الأندلس كان آخر محطّات تفشّي الطّاعون الأسود ثمّ مدن الأندلس، ولا شكّ أنّه قد انتشر في كلّ أنحاء العالم القديم، فقد كان جائحة أو طاعونا أسودا بحقّ كما قد وُصف خلّف خرابا هائلا[32].

ثمّ شرع ابن خاتمة في وصف الموقع الجغرافي لمدينة ألمرية وأطعمة أهلها – الأسماك– وهوائها الرّطب؛ ممّا يسهّل تفشّي الوباء بحسبه، ومن أهمّ بؤر الطّاعون الأسواق فقد هلك كثير من أهلها، حتّى صار أهل المدن يخشون من دخول الغريب عليهم، ويحرصون على أن لا يدخل أحد إليهم طلبا للسّلامة، ومع ذلك فقد فشا في أغلب الأماكن وانتشر، ويظهر

---

[29] – لسان الدّين ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص43، 44.

[30] – النّباهي، أبو الحسن عليّ بن عبد الله الأندلسي، تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا)، لجنة إحياء التّراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1983م، 155–160.

[31] – ابن الوردي، زين الدّين عمر بن مظفر بن عمر الشّافعيّ، ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ط1، 2006م، ص87–91.

[32] – لسان الدّين ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، 44، 45.

أنّ أغلب نقلة الوباء هم التّجّار وأهل الأسواق، كما نقلوا خبر هذا الطّاعون أيضا، وأفاد التّشريح أنّ المرض ينتهي في دم المريض إلى أن يتّصل بالقلب[33]، فيقذف المريض دما قبل أن يهلك، فيما هلك في هذا الطّاعون الحيوانات والأسماك أيضا، ولهذا يعتقد ابن خاتمة أنّ تناول الأسماك في ألمرية أحد أسباب تفشّيه، وينقل عن بعض التّجّار أنّ الأسماك في جهة تركيا قد طفت على السّطح ميّتة منفسخة الأجزاء.

ويؤيد لسان الدّين ابن الخطيب بشهادته أنّ الوباء ظهر أوّلا بالصّين في حدود سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على ما ذكره الرّحّالة والتّجّار كابن بطوطة وغيره، بسبب انتشار الجثث أجلت عنها حرب هناك، فتعفّنت بعد أن تقدّمها حريق نار عظيم على مساحة كبيرة، ففسد الهواء واجتمعت الأسباب، وفشا الوباء الغريب، فانتقل من بلد إلى بلد، يبدأ بالشّخص الضّعيف المناعة ثمّ تنتقل العدوى فيفسد هواء تلك البلد إلى أن يعمّ في جميعها، حتّى شمل أكثر العالم، ووصل الجزر المنقطعة وسط البحر حتّى هلك سبعة أعشار من البشر بحسبه، "ولم يتقدّم فيما اتّصل بأولي الاطّلاع من تواريخ الأمم خبر وباء بلغ مبلغه .. واستئصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة، يتعلّق بالنّاس تعلّق النّار بالحلفاء والهشيم بأدنى ملابسة من إلمام بمريض، أو بمباشرة ثوبه وآنيته"[34].

وبالتّالي فقد استمرّ هذا الوباء نحوا من خمسة عشر سنة، ويُشار إلى أن رسالة ابن الوردي في الطّاعون، والّتي تنتمي إلى أدب المقامات أيضا، تُعدّ بحسب المحقّقين والمؤرّخين، وثيقة عن مظاهر الطّاعون وأشكال الإصابة به، في تلك المرحلة، كما أنّها قدّمت تصويراً دقيقاً لما مرّت به المنطقة، بعدما أُصيب بهذا الطّاعون، حيث أكّد ابن الوردي، في رسالته، أنّ الطّاعون ضربها خمسة عشر سنة متواصلة، وهي مدّة الوباء، يمكن لها أن تفني شعوبا بأكملها، وهو تعبير استعمله الإخباريون العرب، عن طواعين الشّام وما تركته بأهلها الّذين كادوا يفنون بسببه[35].

وفي فرنسا كان أوّل ظهوره بتولوز سنة 747هـ/1347م، والّتي فقد نصف سكانها، ومقاطعة نورماندي فقدت الثّلث، وفتك في أوربا بخمسة وعشرين مليونا، ولجأ النّاس إلى

[33] – المرجع نفسه، ص49.

[34] – المرجع نفسه، ص76، 77.

[35] – عهد فاضل، شاعر عربيّ تحدّى الطّاعون بقصيدة فكانت آخر ما ألّفه،

الكنائس واضطهاد اليهود باعتبارهم سبب البلاء وغضب الرّبّ، وانتقل الطّاعون إلى الأناضول، ثمّ إلى الشّام وبلاد المسلمين سنة 749هـ/1349م، ووصل إلى معظم جهات المعمورة[36].

وقال ابن حجلة التلمساني أنّه "لم يسلم منه في هذا العام من مدن الأرض كلّها غير مدينة النّبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–"، وقال بأنّه هلك فيه نصف العالم الحيواني من بشر وطير ووحوش[37]. وقال ابن حجر أنّه: "ابتدأ من أوّل السّنة، فلم يزل يتكاثر إلى شهر رجب، فعَظُم في شعبان ثمّ في رمضان، ثمّ تناقص في شوّال، وارتفع في ذي القعدة"[38].

من الآثار الاجتماعيّة للطّاعون الأسود

ظهرت آفات اجتماعية بسبب الطّاعون وما خلّفه من كثرة الموتى وضعف السّلطة؛ كالسّطو والانتقام، ومنها الافتيات واتّخاذ مراسيم الدّفن مهنة ووسيلة للاستغناء، وتدخّل الدّولة ومحاولتها كبح جماح الجشع؛ يقول ابن كثير: "وزاد ضمان الموتى جدًّا فتضرّر النّاس ولا سيّما الصّعاليك، فإنّه يؤخذ على الميّت شئ كثير جدّا، فرسم نائب السّلطنة بإبطال ضمان النّعوش والمُغسّلين والحمّالين، ونُودي بإبطال ذلك في يوم الاثنين سادس عشر ربيع الآخر، ووقف نعوش كثيرة في أرجاء البلد واتّسع النّاس بذلك، ولكن كثرت الموتى فالله المستعان"[39]، ويبدو من خلال شهادة ابن كثير أنّ الحكّام حاولوا معالجة الأمر، بأمر النّاس بالكفّ عن ذلك، وبالمُساهمة في إعداد النّعوش، ويستدرك ابن كثير بكثرة الموتى بما يُفهم منه أنّ هذه الإجراءات لم تتغلّب على هذه الظّاهرة.

وتلت هذا الطّاعون فوضى وأعمال انتقاميّة من الانتهازيّين الّذين أضرّوا بالنّاس زمن الطّاعون؛ فقد قضي على عدد من الأمراء منهم نَائِبِ السَّلْطَنَةِ بدمشق الأمير سيف الدّين أَرْغُونَ شَاهْ وسيف الدّين الجي بغا العادلي نائب طرابلس وفخر الدّين إياس نائب حلب،

---

[36] – الحاج قاسم محمّد، محمود، البيئة والأوبئة في التّراث الطّبّي العربيّ الإسلامي، دار ماشكي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الموصل، العراق، ط1، 1441هـ/2020م، ص97، 98.

[37] – ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص380.

[38] – المرجع السّابق، ص385.

[39] – البداية والنّهاية، مرجع سابق، ج14ص261.

وَفِي أوائل شهر جمادى الآخرة جاء الخبرُ بموت نائب حلب سيف الدّين قطلبشاه ففرِح كثير من النَّاس بموته وذلك لسوء أعماله في مدينة حماة في زمن الطّاعون، "وفي ليلة السّبت بين العشاءين سادس عشره دخل الجيش الّذين خرجوا في طلب ألجي بغا المظفري، وهو معهم أسير ذليل حقير، وكذلك الفخر إياس الحاجب مأسور معهم، فأودعا في القلعة مهانين من جسر باب النّصر الّذي تجاه دار السّعادة، وذلك بحضور الأمير بدر الدين الخطير نائب الغيبة، ففرح النّاس بذلك فرحا شديدا، ولله الحمد والمنّة، فلمّا كان يوم الإثنين الثّامن عشر منه خرجا من القلعة إلى سوق الخيل فوسطا بحضرة الجيش، وعلّقت جثتهما على الخشب ليراهما النّاس، فمكثا أيّاما ثمّ أنزلا فدفنا بمقابر المسلمين"[40]، ويبدو أنّ مرحلة الذّروة بدمشق تواصلت شهري رجب وشعبان؛ يقول ابن كثير: "واستهل شهر شعبان والفناء في الناس كثير جدا، وربما أنتنت البلد، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون". وقد تواصل إلى مطلع سنة 750هـ حيث بدأ يتناقص تدريجيّا، وهلك فيه بعض الأفاضل يقول ابن كثير: –سنة 750هـ–: "وفي هذه السّنة ولله الحمد تقاصر أمر الطّاعون جدّا ونزل ديوان المواريث إلى العشرين وما حولها بعد أن بلغ الخمسمائة في أثناء سنة تسع وأربعين، ثمّ تقدّم ولكن لم يرتفع بالكلّيّة، فإن في يوم الأربعاء رابع شهر المحرّم توفّي الفقيه شهاب الدّين أحمد بن الثّقة هو وابنه وأخوه في ساعة واحدة بهذا المرض، وصلّي عليهم جميعا، ودفنوا في قبر واحد رحمهم الله تعالى"، وهذا يُفيد أنّ الدّولة كانت تقوم بعميلة إحصاء للموتى وما يتبعه من حقوق الورثة، فقد تناقص عدد الورثة تبعا للدّواوين.

انتشار الشّائعات: وكما هو الحال في النّوازل الّتي يكثر فيها الإشاعات والأخبار الكاذبة والمزّيّفة؛ فإنّ ابن خاتمة يذكر عن شائعة مفادها أنّ سبب هلاك الأسماك بساحل تركيا كانت ناتجة عن صاعقة أحرقتها؛ وهو غير علمي، لأنّها بحسبه تنطفئ بملامسة المياه، وكيف لصاعقة أن تتسبّب في هلاك الكثير منها، وهو يرجّح بأنّ سبب الطّاعون الأسود هو فساد الهواء حتّى يهلك الحيوان، وبهلاكه يزداد العفن حتّى يفسد الماء، وبفساد المياه تهلك الأسماك، وخاصّة في البحيرات والبرك القريبة القعر[41]. وانتشار الشّائعات في زمن الجوائح

[40] – ابن كثير، البداية والنّهاية، مرجع سابق، ج14ص268–260.

[41] – مقنعة السّائل، ص50.

والأزمات أمر طبيعيّ في كلّ الأزمان المجتمعات، فقد لاحظنا في بداية انتشار جائحة الكورونا تعدّد الأقوال في طريقة انتشار فيروس الكورونا 19 وتضاربها أحيانا، وهو ما أدّى إلى إطالة عمر الوباء وتوالي الموجات الأولى والثّانية ثمّ الثّالثة سنة 2021م، ومنه أيضا كثرة الشّائعات والأقوال حول مدى نجاعة اللّقاحات (أسترزينيكا وغيره) في أوربا وغيرها، وهو ما جعل النّاس يختلفون في تلقّي هذا اللّقاح أو تجنّبه نظرا لمضاعفاته المحتملة.

التّحذير من الجهل: يذكر ابن الخطيب أنّ جهل النّاس –ومن أدعياء الطّبّ– بصناعة الطّبّ ومعرفة أسباب الوباء وكيفية انتقاله والتّعامل مع المرضى الّذين تختلف أمزجتهم ومقاومتهم للمرض تسبّب في هلاك الكثيرين؛ وأنشد في ذلك[42]: [السّريع]

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

ويقول الشّقوري (كان حيّا سنة 776هـ): "ولا ينبغي لأهل الجهل بالطّبّ أن يتّبعوا في ذلك هوى نفوسهم، بل ينبغي الاقتداء بأهل الدّين والفضل؛ الّذين هم مصابيح الهدى والأئمّة لمن بهم اقتدى، فإنّ كثيرا من النّاس يُفهَم من كلامه أنّ الطّبّ يخالف أمر الله، وهذا جهل من قائله، وإنّما المخالف لأمر الله من نسب فعلا لمخلوق ومن كلّ وجه، بل ذلك شرك والعياذ بالله، والاعتقاد الواجب في ذلك أنّ الطّبّ من أمر الله، وممّا ندب إليه رسوله –صلّى الله عليه وسلّم–، وممّا خوّل الله به عباده من النّعم، والفعل فعله والأمر أمره، لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه، فإذا علم العبد أنّ الأمر كذلك أيقن أنّ الطّبّ نعمة من الله ورحمة أجراها لعباده .."[43]، ويقول في موضع آخر: "وعلى أهل الدّين والعقل ممّن أسند إليه أمر من أمور المسلمين أن يمنع أهل الجهل والإقدام من مضرّة المسلمين بإعطائه الأدوية دون مشورة الأطبّاء واستعمال الفصْد كذلك، فإنّ هذا متلف لا لمعنى، .."[44].

وهذه القضية لازالت مثار الجدل والنّقاش بين علماء الدّين والمثقّفين والمفكّرين، وسبب هذا النّزاع هو توّهم التّعارض بين النّصوص الشّرعيّة والشّواهد العقليّة والطّبيعيّة، وهي

---

[42] – المرجع السّابق، ص72.

[43] – الشّقوري، أبو عبد الله محمّد بن عليّ اللّخمي، النّصيحة في الوباء، مخطوط، المكتبة الوطنيّة الإسبانيّة، رقم: 8/5067، 2و.

[44] – المرجع السّابق، 5و، 5ظ.

القضية نفسها الّتي انبثق منها ما يُعرف بعصر الأنوار أو الحداثة وما بعد الحداثة، فأخذت شكلا آخر، وهو الجدال بين الحداثيّين والتّراثيّين، بحيث يستحيل الفصل في مثل هذه القضايا لسعة الموضوع وتعدّد القراءات والتّأويلات.

الوقاية والعلاج من الوبا

يقول السّومريّ: "فأمّا ما ينبغي للإنسان أن يتّقيه في زمان الوباء والطّاعون من الأطعمة والأغذية والأشربة، فالأشياء المولدة للدّم الكثير المسخّنة للأبدان كاللّحوم والحلاوات والثّرايد وغير ذلك، وتجنّب شرب اللّبن الحليب، وأكل الفواكه والّذي لم ينضج منها، وتجنّب الجماع، فقد نصّ الأطباء على أنّ الجماع وشرب الخمر في الوباء من أعظم الأشياء مضرّة، وهما أقوى أسباب الهلاك، وهذا كما قيل في المثل: جَرب فصح، كما ذكرنا من شأن الفسّاق الّذين وجدوا موتى، وممّا يجتنب أيضا الحمام فإنّه يجتنب أيضا البتّة، واستعمال الماء الحارّ وكثرة الدّلك واستعمال النّورة، فإنّ ذلك ممّا يثور الدّم ويجتذبه إلى ظهر البدن فيجتنب ذلك، وليحذر من التّعريض لشمّ ريح المرضى وأنفاسهم، والمقام في الأمكنة الحارّة، ولا يدافع الجوع والعطش ويستقلّ من الأطعمة، ففي التّمكّن من الطّعام آفة عظيمة، ولا يتعرّض للحرّ والشّمس ولا للتّعب والرّياضة والغضب وكثرة الحركة، وعليه بالسّكون كما الحديث المقدّم ذكره، أعني قوله –عليه السّلام–: "إذا سمعتم بالطّاعون في بلد فلا تقدموا عليه، وإذا كان في بلد وأنتم به فلا تخرجوا منه"، فيه إشارة لطيفة إلى الأمر بالسّكون وتجنّب الحركة والتّعب، فإنّ الانتقال عن بلد الطّاعون على الدّخول إليه لابدّ فيه من حركة وتعب، ففي غضون الحكم النّبويّة من الحكم الظّاهريّة والخفيّة ما فيه شفاء القلوب والأبدان، والله المسلّ[45].

أوّلا: التّعقيم والحجر الصّحّي: ويذكر لسان الدّين ابن الخطيب أنّ هناك حالتين؛ وهما قبل وقوع المرض وبعد وقوعه:**الحالة الأولى: قبل وقوع المرض:** فأمّا قبل وقوع الوباء يتوجّب الاحتراز منه عن طريق الوقاية؛ ولها طريقتان؛ هما:**الطّريقة الأولى: استفراغ المادّة الزّائدة وإصلاح الأغذية** باختيارها معتدلة مائلة إلى البرد والتّغليظ؛ وذلك من باب توقّي الشّيء

[45] – السّرمري، الوباء والطّاعون، مرجع سابق، ص109، 110.

بضدّه، **وبإصلاح الهواء والمجالس بالطّيوب الباردة والرّياحين،**[46] وهذا ما يعرف اليوم **بالتّعقيم. الطّريقة الثّانية:** وهي الأفضل باجتناب المريض والميّت وثوبه وآنيته وسكنه ومجاورته وجميع أغراضه، فإن استدعت الضّرورة إلى بعض ذلك يجب على الشّخص المباشر لها أن يحتاط بحبس النّفس بشمّ موادّ تحلّل سمية الهواء، وأخذ أعالي الرياح على محلّ الآفة، وهو نظير ما يفعله الأطباء اليوم في التّعامل مع مرضى الكورونا من ارتداء الكمامات والأقنعة واستعمال المطهّرات والمعقّمات.

وأمّا الحالة الثّانية: وهي بعد الوقوع في المرض، فهو التّعامل مع الحمّى وشدّة الحرارة فبعلاج ذات الرّئة (صعوبة التّنفّس) وتسكين الحرارة الشّديدة، ويقول الطّبيب أبو عبد الله محمّد بن عليّ الشّقوري: "تحقّق أنّ سببه فساد مبثوث في الهواء للتّنفّس، فلذلك أمر الأطبّاء بإصلاح الهواء، وهو من آكد الأشياء .."[47]، وقد جعل الشّقوريّ نصيحته على فصلين: إصلاح الهواء، وإصلاح الأبدان بالغذاء والدّواء. **نماذج من الحجر الصّحّي:** ذكر ابن الخطيب أنّ العدوى هي العامل الأوّل في انتشار المرض، وأنّ اجتناب مخالطة المرضى والأماكن الموبوءة هو الطّريقة المثلى لاجتناب المرض، وقد استدلّ من وقائعه بأحداث نجا فيها النّاس من الوباء على كثرة الموتى حواليهم، منها ما ذكره عن أحد الصّالحين بمدينة سلا؛ وهو ابن أبي مدين، عندما تزّوّد للحجر الصّحّى وأغلق بابه مع أهله وهم كثيرون، وفنيت المدينة ولم يصب أحد منهم على طول المدّة[48]. ومن أمقلة الحجر الصّحّي في الأندلس أنّ الأماكن المعزولة لم يصلها الوباء، ومن هذه الأمثلة وقوع جماعة من المسلمين –وهم ألوف– أسرى بإشبيلية فلم يصبهم الطّاعون وقد كاد يستأصل المدينة[49]. وقد استدلّ ابن الخطيب بهذه الأمثلة في سياق إنكاره على المنكرين للعدوى والمستخفّين بانتشار المرض عن طريق العدوى، وخصّ المفتين منهم بذلك.

ثانيا: إصلاح الهواء (التّعقيم): جاءت التّعاليم النّبويّة بما يُفيد تجنّب اختلاط هواء التّنفّس بين النّاس عند شرب الماء؛ ففي الحديث النّبويّ: "إذا شرب أحدكم فلا يتنفّس في

---

[46] – ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص66.

[47] – الشّقوري، النّصيحة في الوباء، مخطوط، 1ظ، 2و.

[48] - ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص81.

[49] - ابن الخطيب، مقنعة السّائل، مرجع سابق، ص73، 74.

القدح، ولكن ليبيّن؛ أي يبعد الإناء عن فيه"، وفي حديث ابن عبّاس –رضي الله عنهما–: "إنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– نهى عن الشّرب من في السّقاء" –متّفق عليه–، كلّ ذلك وقاية للسّليم من انتقال الكثير من الأمراض إليه من الشّخص المريض عن طريق اللّعاب والشّفتين"[50]، كما شدّد على نظافة موارد المياه والطّرقات والمساجد والبيوت وغيرها، ويكون إصلاح الهواء بحسب الشقوري، وهو من نعرفه اليوم بالتّعقيم، عن طريق التّبخير.

فإذا كان الجوّ باردا أو فيه ضبابا أو ممطرا يبخّر الهواء بمواد مناسبة له كالقطران، وإذا كان الجوّ صافيا أو حارّا فيستعمل الآس وهو الأفضل والرّياحين وورق الكرم وورق القصب الأخضر وغيرها، وتزال بعد ثلاثة الأيّام، ويستعمل الرّشّ بالماء والخلّ مشاطرة لسطوح المنازل وجدرانها، ويبخّر على إثره ويسدّ الباب، ومنها الاغتسال بالماء البارد وسط النّهار، ومنها اختيار المسكن بأن يمكث في البيوت المنخفضة في النّهار والمرتفعة ليلا، ويستعمل من المشمومات ماء الورد والآس[51].

ثالثا: إصلاح الأبدان بالغذاء **والدّواء:** ينصح الشقوري باجتناب كثرة الأكل وقلّة الشّرب والجمع بين عدّة مأكولات، واجتناب الموالح والحلاوات والحوامض إلّا على قدر الحاجة، وأمّا المستعمل فخبز القمح المعجون بقليل من الخلّ مع الماء، واللّحم لا بدّ منه لتقوية المناعة، وأفضله لحوم الطّير والدّجاج والحجل مع أنواع الخلّ، وأمّا الماء فالبارد الممزوج بقليل من الخلّ أيضا[52]. ومن أنفع الأشياء وأبلغها في التّحفّظ تعقيم أقداح الشّرب بماء الخلّ وعدم المشاركة فيها. وشاع تبخير البيوت شرقا وغربا والتّختّم بالياقوت، وإصلاح الغذاء بالبقل والخلّ والطّحينة وأقلّوا من الفاكهة والأمراق؛ يقول ابن الوردي في مقامته: "وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسُّعْد والصّندل، وتختّموا بالياقوت، وجعلوا البقْل والخلّ والطّحينة من جملة الأدم والقوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة"[53].

ويستفاد من رسالة ابن الوردي في الطاعون، من عرضه للطريقة التي كان يتداوى

---

[50] – – الحاج قاسم محمّد، محمود، البيئة والأوبئة في التّراث الطّبّي العربيّ الإسلامي، مرجع سابق، ص56.

[51] – الشّقوري، النّصيحة في الوباء، مخطوط، 2ظ، 3و.

[52] – الشّقوري، المرجع السّابق، 4و.

[53] – ابن حجر، بذل الماعون، مرجع سابق، ص376.

بها المصابون بالوباء في تلك المرحلة، ويقول إن أعيان أهل حلب، كانوا يطالعون ما تيسر من كتب الطب التي كانت موجودة في ذلك الوقت. ويقول أيضا إن الأعيان كانوا يكثرون من أكل النواشف والحوامض، كنوع من العلاج، وقاموا باستعمال الخل والبصل، كمواد تعقيم. ويشار إلى أنهم قللوا في طعامهم من المرَق ومن الفاكهة أيضا.

رابعا: التّفطّن للمناعة والأمصال: قد تفطّن علماء المسلمين إلى قضية المناعة والأمصال، ودورها في الوقاية والعلاج، وقد لاحظوا أنّ تأثير الوباء في الأماكن الموبوءة أخفّ أثرا، وتساءلوا عن ذلك؛ فأجاب لسان الدّين ابن الخطيب: "إن قيل: ما باله في المواضع الوبيئة أخفّ، قلنا: إن صدق الزّعم فللأنسنة من النّفوس بالأهوية الخبيثة وتعوّدها المصابرة له والتّعاهد به ..."[54]؛ أي إنّ النّفوس تأنس للوباء وتعتاد عليه، ممّا يكوّن مناعة ضدّه فيحصل منه أمصال مقاومة للوباء، وهو ما حاول الأطبّاء فعلا مع وباء الكوفيد، بتلقيح المرضى بأمصال الأشخاص الّذين أصيبوا به وتمكّنوا من الشّفاء والتّغلّب على أعراضه.

خاتمة

يمكن الاستنتاج أن هذا المقال يناقش بعمق وبشكل شامل رؤية الإسلام للأوبئة، بما في ذلك التشخيص والوقاية والعلاج. واستنادًا إلى التحليل الشامل لتراث الإسلام، يظهر أن .هذا الدين قد منح اهتمامًا كبيرًا لمشكلات الصحة العامة، بما في ذلك التعامل مع الأوبئة يناقش هذا المقال كيفية تقديم الإسلام لتوجيهات واضحة حول الإجراءات التي يجب اتخاذها لمواجهة الأوبئة، سواء من الناحية البدنية أو الروحية. من خلال فهم وتدريك الرؤى والتعاليم ،الإسلامية حول الأوبئة، من المتوقع أن نكون أكثر استعدادًا وقدرة على التعامل معها بحكمة واتخاذ التدابير الوقائية المناسبة وفقًا لقيم الدين. من خلال فهم أعمق للقيم والتعاليم الإسلامية المتعلقة بالصحة، يمكننا اتخاذ خطوات أكثر حكمة في الحفاظ على صحة المجتمع، سواء في الظروف الطبيعية أو في وسط الأزمات الصحية مثل الأوبئة. وبالتالي، يأمل هذا المقال في تقديم مساهمة إيجابية في زيادة الوعي والفهم حول كيفية نظر الإسلام إلى الأوبئة وكيفية التعامل معها، وتحفيز جهود أكثر فعالية في التصدي للتحديات الصحية التي تواجه المجتمع

[54] – ابن الخطيب، مقنعة السّائل، ص81.

العالمي. نأمل أن يوفر هذا المقال فهمًا أعمق لكيفية نظر الإسلام إلى الأوبئة وكيفية التعامل معها، ويُلهم اتخاذ التدابير الحكيمة والفعّالة في مواجهة التحديات الصحية التي تواجه المجتمع.

المراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ابن الوردي، ، *"ديوان ابن الوردي"* ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، ط1. ع (2006).

ابن الوردي، *"تاريخ ابن الوردي"* ، المطبعة الحيدريّة، النّجف، العراق. ع (1969).

ابن تغري بردي *"النّجوم الزّاهرة في أخبار مصر والقاهرة"* ، قدّم له وعلّق عليه: محمّد حسين شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1. ، ب (*1993*).

ابن حجر العسقلاني، *"بذل الماعون في فضل الطّاعون"* ، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرّياض، ط1. أ (1991).

ابن خلدون *"رحلة ابن خلدون"* ، تحقيق وتعليق: محمّد بن تاويت الطّنجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1. ، ع (2004).

ابن شاهنشاه، إ (دت)، *"المختصر في أخبار البشر"* ، المطبعة الحسينيّة المصريّة، مصر.

ابن كثير، *"البداية والنهاية"* ، دار الفكر، بيروت. إ (1986).

الحاج قاسم محمّد، *"البيئة والأوبئة في التّراث الطّبّي العربيّ الإسلامي"* ، دار ماشكي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الموصل، العراق، ط1. م (2020).

الذّهبي، م (دت)، *"العبر في تاريخ من غبر"* ، تحقيق: أبو هاجر محمّد السّعيد زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت.

الرّوقي، *"نفح العبير"* ، الدّار العالميّة للنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، ط1. ع (2011).

الشّقوري، م (مخطوط)، *"النّصيحة في الوباء"* ، مخطوط، المكتبة الوطنيّة الإسبانيّة، رقم: 8/5067.

عبد المقصود، *"الحضارة الإسلاميّة –دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة–"* ، دار الكتب العلميّة،

بيروت. ط (2004).

عبد الرّحيم، *"رسالة النّبا عن الوبا لزين الدّين بن الوردي (ت749هـ) –دراسة نقديّة–"* ، مجلّة جامعة النّجاح للأبحاث، المجلد 24 (5). ر (2010)

الكتبي، *"عيون التّواريخ"* ، تحقيق: فيصل السّامر ونبيلة داود، دار الرّشيد، بغداد. م (1980).

لسان الدّين ابن الخطيب، ، *"مقالة مقنعة السّائل عن المرض الهائل"* ، تحقيق وتقديم: حياة قارة، منشورات دار الأمان ومطبعة الكرامة، الرّباط، ط1. م (2015).

النّووي، يحيى بن شرف ، *"شرح صحيح مسلم"* ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت. (1392هـ).